العرب
الأحد 2021/03/07
السنة 43 العدد 11992

المثقفون يتقبّلون الوصايا.. والشعبوية فهمت الدرس

الشعبوية تنتصر على المثقفين

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

تذهب إلى الطبيب ربما 50 مرة ويعطيك التشخيص الصحيح. إذا كنت من غير المتشككين، تصير تؤمن بأن الأطباء يعطونك التشخيص الصحيح دائما. أغلب الأمراض مباشرة وأحادية السبب. أغلب التشخيصات مباشرة ولا تحتاج إلى الكثير من الخبرة الطبية. الاستنتاج هو أن الأطباء يعرفون كل شيء وكل علة. يردون على أسئلتك ويصير ما يقولونه هو الحكمة.

تسأل صديقا أسئلة من كل نوع وشكل. تختاره من بين آخرين لأنه "يعرف". إذا كان محظوظا والأسئلة في نطاق معارفه، أو كنت محدودا وما تسأل عنه في إطار ضيق، فإنّ هذا الصديق يصبح بمنزلة العارف. الاستنتاج أن هذا الصديق سيرد دائما بشكل دقيق. ما سيقوله في أشياء أخرى هو الحق دائما.

علاقتنا بأغلب المعلومات تتلخص في أننا نثق بالمصدر بعد تجربته في ما نعرفه، ثم ننسى موضوع التدقيق والاستفسار

هذه علاقتنا بالأسئلة والأجوبة والتساؤلات والردود. هذه علاقتنا بأغلب المعلومات. نثق بالمصدر بعد تجربته في ما نعرفه، ثم ننسى موضوع التدقيق والاستفسار. تسود الثقة حتى في حالة عدم الفهم.

هناك غيرنا من فكّر أو يفكّر بالأمر. إذا كانت المنظومة الدينية أو الأيديولوجية أو الحزبية صحيحة ومفهومة في 500 من التعليمات والجمل والوصايا، ولكننا لا نفهم أو لا نستفسر عن الوصايا والتعليمات المكملة، فإنّ الاستنتاج هو أنّ ما لا نفهمه لا يعني أننا لا نقبل به.

افهم أول 500 منها والمئات التي تليها صحيحة حتى لو لم تفهمها. وما نقبله يتحوّل بمرور الوقت إلى مسلمات، بل إلى إيمان. هذا ما يجعل مهمة الأحزاب والمنظومات الفكرية القائمة على الإيحاء بالإيمان الديني أسهل وأبسط. غدّ التساؤلات البسيطة والمتوسطة بردود وحجج مقنعة، واترك الباقي للمتلقي نفسه.

هذه نظرة خطيرة إلى الأشياء. لأن ترسيخ فكرة أن الأيديولوجيات الدينية والسياسية تعرف، وأنها سترد على كل شيء، هو ما يغذّي عالما يزداد انغلاقا. انغلاق استثنائي فعلا، حتى بما يتعلق بالأيديولوجيا الشعبوية التي تنتشر في يومنا هذا.

في السابق جاءت موجات سياسية قومية وماركسية ويسار مركب على اختيارات مجتزأة لتفسيرات الشيوعية على الطرق السوفييتية والصينية والتروتسكية. ثم جاءت موجات التفسير السنّي والشيعي للدين الإسلامي، وكل منها باجتهادات مركبة عميقة أو حركية أو ساذجة بدورها.

تصدرت التفسيرات الإخوانية والسلفية المشهد السنّي وتصدرت الخمينية بحركيّتها الخامنئية المشهد الشيعي. التفسير اليهودي للديانة الموسوية استبق كثيرا التفسيرات الإسلامية للقرآن والحديث. مطلوب من اليهودي المتفاني أن يقبل التفسير التوراتي والوصايا كما هي، فهم منها ما فهم أو عجز عن إدراك البقية.

الشعبوية فهمت الدرس وجاء بوريس جونسون ليأخذ بريطانيا إلى بريكست، وجاء ترامب ليأخذ الولايات المتحدة إلى تمرد سياسي أولا، ثم إلى تمرد على الحكم كما شهدنا في تظاهرات مؤيديه في مبنى الكابيتول.

حكايتا جونسون وترامب لا تزالان في البداية. الاثنان حصلا على تأييد رابح في بريطانيا وآخر على الحافة الخاسرة من تقارب استثنائي بين الاختيار بين جو بايدن ودونالد ترامب. لا يمكن لأيّ عاقل أن يرى مناصفة تقريبية في الأصوات الممنوحة لسياسي ويتجاهلها. الفوز أو الخسارة بما يقرب من نصف الأصوات رسالة للجميع: لا تستهن بالزعيم الذي يقف أمامك.

إنه الإيمان الآن من دون أيديولوجيا وأديان. جونسون يقول الحق أو يكذب غير مهم. الناخب صدقه. صدق أول كلامه، ويمكن أن يستمر بتصديق كل ما يقوله لاحقا. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن ترامب.

عندما تراهما، أو ترى من يحاول محاكاتهما في دول أصغر وأقل أهمية، تعرف أنهما ينظران إلى نفسيهما نظرة أنبياء للذات. مرة أخرى الخطر يكمن في أن متنبيَيْ هذا الزمان يجدان الملايين ممن لديهم القدرة على قبول البدايات من الوصايا، ومن ثم السير قدما في قبول أيّ وصايا غثة وسمينة لاحقا.

هذا ما يحدث في الغرب في تركيبة يفترض أنها واعية ومطلعة. فكيف بحالنا في عالمنا المنقاد بأهواء وتوجهات إسلامية، بل ومسيحية كي لا ننسى ما يمكن أن يصدر عن مؤسسات وأشخاص في عمق التوجه الأرثوذكسي المسيحي؟ أعتقد أن المشهد أمامنا يكشف عن هذا الانقياد بما لا يترك مجالا للشك.

هذا واقعنا الذي يدفع إلى العتب الموجّه مرات ومرات إلى المثقفين العرب. السياسيون يبررون أفعالهم بالنتائج. فماذا حقق مثقفنا من نتائج؟ أنا أرى أن تونسية بسيطة تؤمن بالعلمانية وتحدّت ضغوط إسلاميي النهضة أو ترهيب السلفيين في الشارع، يمكن أن تكون أوقفت التمدّد المؤدلج في عالمها المحدود والبسيط أكثر وبأضعاف ممّا حققه مثقف عربي متردد. لا تقبل أن تمدد إيمانها البسيط بالدين والعلمانية معًا ليكون مفتوحا على كل شيء. مثقفونا، وخصوصا من تحركهم مصالحهم، يقبلون.

العرب مجتمعات تعيش بلا أسئلة

كاهنة عباس
كاتبة تونسية

إذا ما سلّمنا جدلا بأن لا وجود لمعرفة مكتملة، أثبتت تطابقها التّام مع الواقع، سننتهي إلى القول إنّ كلّ معرفة مهما كان الحقل الذي تنتمي إليه علميّا أو فلسفيّا أو أدبيّا هي قابلة للمساءلة، أي لإعادة النّظر في ما وصلت إليه بطرح أسئلة جديدة.

لذلك، كانت الأسئلة هي المفتاح الأصليّ لكلّ بحث واكتشاف، إذ تكمن مهمّتها في زعزعة المسلّمات وتفكيك شبكة المعلومات السّائدة في عصر ما، قصدَ فهمها واكتشاف أسسها.

ومعنى ذلك، فإن التّفكير يبدأ بطرح سؤال أو عدّة أسئلة كنقطة بداية لكي يبني تصّوره للواقع، فليس من باب الصّدفة أن يكون سقراط أبًا للفلسفة اليونانيّة، وذلك لتوخّيه منهج طرح الأسئلة واستنباطه لطريقة من طرق البحث عن الحقيقة سميّت بتوليد الأفكار.

وتحتاج العلوم في شتّى الاختصاصات صحيحة كانت أم إنسانيّة إلى طرح جملة من الأسئلة، فعلى سبيل المثال، لا يمكن للطبيب أن يشخّص مرضا إذا لم يطرح على المريض جملة من الأسئلة، ولا للمؤرّخ أو عالم الاجتماع أو الطبيب النفسيّ أن يتحقّق من فرضيّة أو أن يصل إلى استنتاج أو أن يحيط بظاهرة نظريّة كانت أم واقعيّة في غياب طرح الأسئلة، وهي نفس الوسيلة التي يعتمدها الصحافيّ للتقصّي في واقعة ما، أو القاضي في مجال عمله للبتّ في نزاع أو الحكم بإدانة الجاني عند ارتكابه لجريمة.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار، إلى أنّ للأسئلة غايات مختلفة، فالسّؤال الذّي يرمي إلى فهم موضوع ما، ليس بسؤال الاستفسار ولا هو بسؤال الشّك ولا بسؤال الاستنكار، أما الفرق بينها جميعا فيكمن في مدى إعادة النّظر في الموضوع المطروح وكيفيّة تلقيه وقراءته.

ويبدو لنا سؤال الاستفسار على سبيل المثال ملحّا بل وضروريّا حتى وإن طرح خارج الحقل المعرفيّ، لأنّه يحدد علاقتنا بذواتنا عندما نتساءل ماذا نريد وما الّذي نسعى إلى تحقيقه وماذا ننتظر، كما يحدد أيضا علاقتنا بالآخر لمعرفة من يكون وما هي غايته من التّواصل معنا، وكذلك بالعالم من حولنا لمعرفة خفاياه وأسراره.

لذلك فإنّ النّمو النفسيّ والفكريّ للأطفال يبدأ بطرح الأسئلة فهي التي تساعدهم على اكتساب رؤية للعالم وللأشخاص المحيطين بهم.

ولا تقف أهميّة السّؤال عند لحظة طرحه بل تتجاوزها إلى غايته وكيفيته كما ذكرنا، لأنّهما يحددان طبيعة الأجوبة واتّجاهها وأسسها.

على الفرد أن يسأل (لوحة للفنان باسم دحدوح)

وكما تساهم الأسئلة في النموّ الفكريّ للأشخاص، فإنّها تساهم أيضا في تطوّر الثقافات ونموّها لتحدث في مرحلة ما قطيعة معرفيّة، فالسّؤال هو الذي يفتح أفق البحث في ميدان معيّن.

وعلى سبيل المثال، أدّى المنهج الديكارتي الذي اعتمد الشّك إلى اكتشاف الذّات المفكّرة أي الذّات التي مارست "فعل التّساؤل"، عندما أعاد ديكارت النّظر في كل المعارف والآراء الّتي تلقّاها وفي المعلومات التي كان يتقبّلها بواسطة حواسّه، بل وحتّى في وجوده الشخصيّ ليستنتج ما جاء بقولته الشهيرة "أنا أفكّر فأنا موجود" كي يقرّ بوجود "الكوجيتو"، المفهوم المؤسس للفرد مع ما أنتجه في مراحل تاريخيّة لاحقة من ظهور قيم وحقوق تعترف بذلك الفرد سياسيّا واجتماعيّا كذات مستقلّة عن العائلة والدولة والجماعة.

أما في مجتمعات العالم العربيّ، غالبا ما يقمع الفضول والرّغبة في الاكتشاف منذ السّنوات الأولى من نشأة الفرد، حيث تُؤسس مناهج التربية على التلقين والنّقل لا على التساؤل والبحث، لأنّ الهدف منها ليس تنمية ملكة الخلق والإبداع لدى الفرد بل تغليب الاتّباع والتقليد والخضوع للنّظام القائم وللسّلطة في جميع مظاهرها.

لذلك تهدر جميع قدرات الفرد وإمكانياته الفكريّة في أيّ بيئة كان، سواء في العائلة أو المدرسة أو الفضاء العموميّ وتقيّم رغبته في المعرفة الّتي يعبر عنها بواسطة التّساؤل على أنّها علامة عجزه عن الفهم والاستيعاب، لا على أنّها تنبع من حاجته الملّحة إلى الاستطلاع والاكتشاف، ممّا يفقده القدرة على بلورة أبسط الأفكار أو ممارسة الفكر النقديّ بإعمال العقل للتّثبت من صحّة أو زيف ما يتلقّى من معتقدات وآراء ومعلومات.

ففي مجتمعات تقليد السلف التي تغلب فيها النزعات الأبوية، يحاصر السّؤال داخل دائرة المحظورات، لأنّ الحقيقة ليست قيمة في حدّ ذاتها، إذ تدرس العلوم باعتبارها معطيات جاهزة للنّقل والتداول، لا باعتبارها مجموعة من الحقائق النسبيّة القابلة للشك والتجربة، فالعالم في ثقافتنا معلوم معروف بواسطة النّقل ولا يحتاج إلى أن نكتشف حقائقه.

في مجتمعات العالم العربي، غالبا ما يقمع الفضول والرّغبة في الاكتشاف منذ السّنوات الأولى من نشأة الفرد

وهي من بين الأسباب التي جعلت العالم العربيّ لا ينتج مفاهيم فلسفيّة ولا علوم ولا معرفة رغم تاريخه العريق وإمكانياته الإنسانيّة والماديّة الضّخمة، بل إنّه لم ينتج بعد "حداثته"، لأنّه لم يواجه بعدُ لا تاريخه ولا العالم من حوله بجرأة وشجاعة، لكي يطرح على نفسه جملة من الأسئلة.

فلو رجعنا إلى بدايات القرن العشرين، إلى السّؤال الذي طرحه الكاتب شكيب أرسلان في كتابه بعنوان "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟" لتبيّنا أن مثل ذلك الطّرح كان له تأثير بالغ في تحديد القضايا الفكريّة الكبرى خلال العقود اللاحقة، إذ تفرّعت عنه مسائل عديدة، منها: الأصالة والحداثة، الهويّة والآخر، علاقة المجتمع العربيّ الإسلاميّ بتراثه وماضيه.

وكان لتلك القضايا تأثير أيضا على طرح إشكاليات متعددة في مجالات أخرى سياسيّة واجتماعيّة وأدبيّة وفلسفيّة ذات علاقة بتلك المسائل، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الدّراسات التي اهتمّت بالفتنة الكبرى في التّاريخ العربيّ الإسلاميّ بوصفها لحظة سياسيّة فارقة ما انفكّت تنتج صراعات عنيفة حول السّلطة، النّقاش الّذي لم ينقطع حول حقوق المرأة ومكانتها في المجتمع والأسرة وخروجها إلى الفضاء العام، على المستوى الأدبيّ: الخلافات التي أثيرت حول قصيدة الشّعر الحرّ ثّم حول قصيدة النّثر، أمّا بالنسبة إلى المستوى الفلسفيّ فملامح الفرد لم تحدد بعدُ، رغم ما يمتلكه من عقل ونفس ووجدان ولم تحسم ضرورة استقلاليته عن الجماعة والعائلة والدولة والطائفة، أي أنّ الإشكال يتعلّق بمسألة الاعتراف بوجوده وبحريته وبقدرته على الخلق والإبداع والتميّز.

لذلك أصبح من الضروريّ إعادة طرح أسئلة أخرى تخصّ علاقة مجتمعاتنا بالتّاريخ، بالإنسان، وبالعالم من وجهة نظر أخرى، فلا تضعنا في مواجهة مع الآخر من خلال تلك المعادلة التي فرضتها الحقبة الاستعماريّة بثنائياتها المتنافرة: نحن/ هم، تأخرنا/ تقدموا... بل في إطار أشمل وأوسع يتعلق بإعادة الاعتبار إلى الإنسان كقيمة في حدّ ذاته، لقدرته على التّغيير والفعل والانخراط في التّاريخ الإنسانيّ والمساهمة في تطوّره.

الموضوعان ينشران بالاتفاق مع مجلة الجديد الشهرية الثقافية اللندنية